الحس النَّقدي عند الحجَّاج بن يوسف في تذوقه للشِّعر العربي

محمد علي أحمد و أحمد المهدي أحمد
جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا -كلّية اللُّغات، قسم اللُّغة العربيَّة

المستخلص:

تناولت الدِّراسة (الحس النَّقدي عند الحجَّاج بن يوسف في تذوقه للشِّعر العربي) ووقفت على: حياته ونشأته، وروايته للشِّعر وتمثله به، وعرّجت على نقده واعجابه بأغراض الشِّعر المختلفة من: مدح، وهجاء، وفخر، ورثاء، وغزل، واستعطاف، وتلهف لمعرفة سواتر الأخبار الشِّعرية الَّتي غابت عنه، وهدفت الدِّراسة للتعريف بمنزلة الحجَّاج النَّقدية التي لا تقل عن منزلته السِّياسية، وتوصلت إلى نتائج منها: إنَّه أوَّل من استخدم كلمتي مطبوع ومصنوع وهما مصطلحان نقديان، كما أنَّه اتخذ الصِّدق في قول الشِّعر مقياساً في تقديم الشاعر وتأخيره، واتبعت الدِّراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية:*الصِّدق – الغزل – المدح.*

ABSTRACT:

The study dealt with (the critical Sense of Al-Hajjaj ibn Yusuf in appreciating Arabic poetry), it shows his life and upbringing, his poetics, his narrating and citing of poetry, his admiration and criticizing of the different genres of poetry, the study objective was to present Al-Hajjaj as a discreet critic who has high status as a critic that is not less than his political status, The study reached to several results such as: that he was the first one to use new critical terms to describe spontaneous poets and the unspontaneous ones , and that he used the sincerity as a preferential criterion for assessing poets, The study used the descriptive analytical method.

key words:*Honesty – spinning – Praise .*

المقدمة:

مر الشعر العربي خلال مجموعة من الأعصر، تطورت خلالها أساليبه وأخيلته وعباراته ومعانيه، وأغراضه، بل وقد برزت خلال هذه الأطوار أغراض جديدة جاءت مواكبة للأوضاع السياسية التي شهدتها بيئة الشعر العربي في إقليمي الحجاز والشام، ولا غرو أن للشعر في كل فترة زمنية خصائص تميزه عن بقية الأزمان اللاحقة، ففي الجاهلية كان الفخر ووصف النزاعات والحروب والنسيب، وفي صدر الإسلام تأثر الشعراء بقيم الدين الجديد وتعاليمه ومبادئه في المعاملات والأخلاق، بل تأثر الشعر وأساليبه بالقرآن الكريم وخصائصه التعبيرية، إذ إن القرآن الكريم إلى جانب حفظه للغة العربية عمل على اتساعها وتوحيد لهجاتها وتوسيع عالمها الجغرافي وجدد الأغراض الأدبية، وهذب الألفاظ، كما تأثر الشعر بصفة خاصة في عهد النبوة بألفاظ النبي– صلى الله عليه وسلم– الذي لم تلد البشرية أفصح منه لسانا ولا أوعى منه جنانا، ولا أعلى منه مكانا، ولا أرقى منه بيانا، فكان لفصاحة خطابه وبيان عبارته وانتقاء ألفاظه الدالة على المعاني الشريفة، أثر كبير في ارتقاء الشعر في معانيه وأساليبه وأغراضه. ثم جاءت الدولة الأموية في41هـ ودخل الشعر العربي في طور جديد من أطواره التي شهدها عبر الحقب وكان لها أثر عظيم في تنوع أغراضه ،إذ إن العهد الأموي عرف بأنه عهد

الاضطرابات والصراع القبلي والسياسي، فانتشر بين الناس شعر الزهد الذي يدعو للانقطاع للعبادة وترك الدنيا وملذاتها، وظهر شعر النقائض نتيجة العصبيات القبلية، والشعر السياسي الذي برز إلى الوجود نتيجة توزع ولاء الناس بين الأحزاب السياسية الأمويين والزبيريين والخوارج والشيعة. ولهذا كان الشعر العربي في هذه الحقبة من عمره بمثابة تاريخ حقيقي لما جرى فيها من أحداث، ولما شهدته بيئة الإسلام من تطور فكري وعلمي وثقافي، أسهمت فيه مجالس الأمراء والعلماء، وكانت مجالس الحجاج أكثرها تأثيرا في الحياة الأدبية بل والسياسية.

مشكلة الدِّراسة:

تتمثل مشكلة الدِّراسة في الأجوبة عن الأسئلة التالية:

1- إلى أي مدى كان الحجَّاج موفقاً وصائباً في نقده للشِّعر العربي؟

2-ما المقائيس النَّقدية الَّتي اعتمد عليها في تذوقه للشِّعر العربي؟

3- هل كان الحجَّاج متجرداً من الأهواء السِّياسية والمذهبية في نقده؟

أهمية الدِّراسة:

تتمثل أهمية الدِّراسة في أنَّها تدرس علماً من أعلام الأمة الإسلامية والعربيَّة، له شهرة أدبية لا تقل عن شهرته السِّياسية وتبين جهوده في نقد وتذوق الشعر.

أهداف الدِّراسة:

1- التعريف بالحجَّاج بن يوسف رجل أدب ونقد وذوق.

2- الوقوف على عصور العربيَّة الزاهرة وما خلفه الولاة من ارث ثقافي وأدبي ونقدي.

3- بيان طرق النَّقد عند القدماء لاسيما أهل السِّياسة والسلطان.

المنهج:

اتبعت الدِّراسة المنهج الوصفي ومن أدواته التحليل والنقد.

حياته ونشأته:

هو(الحجَّاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف) (الذهبي، 1990م، 6/ 314- 315)

(وُلِد بقرية الكوثر من قرى الطائف) (ياقوت الحموي، 1993، 7/ 290) (في سنة إحدى وأربعين ، لقبه الحجَّاج يكنى بأبي محمد) (تاريخ الإسلام، 314/6)

(يرى المُؤرخون أنَّ اسمه الحقيقي كُليباً) (ابن قتيبة، 238) يروي المُبرد قول الشاعر في هجاء الحجَّاج: (المبرد، 290)

كُليـــــبُ تمكـــــن فـــــي أرضـــــكُم وقـــد كـــان فينـــا صـــغيَر الخطـــرْ

(والرّاجح أنَّ اسمه كُليباً لأنَّ العرب كانت تختار لأبنائها الأسماء الَّتي تدل على القُوه والشِّدة كصخر، وفهد، وأسد، وكلب ، ولذلك سُمي كُليباً جرياً على عادة القدماء، ثُمَّ أسمته أُمَّه الحجَّاج للتفاؤل بأن يكون من المكثرين للحجِّ) (ابن شاكر، 5/ 258)

عمل الحجَّاج قبل الولاية:

لم تتفق المصادر على عمل واحد تولاه قبل ولايته، فتارة تذكر أنَّه كان دباغاً (أبو الفرج الأصفهاني، 1983م، 3/ 58) وتارة تذكر أنَّه كان مُعلماً .

نَّ ابـــنَ يُوسُـــفَ غَـــرّةُ مِـــن غَـــزْوِكُم خَفْـــضُ الجَنَـــاحِ بِجَانـــبِ الأَمْصَـــارِ

ورأى مُعَـــاوِدَةَ الـــتِّباغِ غَنيمـــةً أيّ ـــامَ كَـــانَ مُحَـــالِفَ الإِقْتَـــارِ

وتارة تذكر أنَّه كان مُعلماً يُعلم الصبيان القرءان بالطائف) (المعارف، 238)

قال مالك بن الرّيب يهجوه، وكان الحجَّاج قد ألزمه محاربة الخوارج فهرب: (العقد الفريد، 5/3)

ـولا بَـذُ ـو مَـرْوانَ كـان ابـنَ يُوسـفٍ كَمـا كَـانَ عَبْـداً مِـنْ عَبيـدِ إِيـادِ

زَمـانَ هُـو العَبْـدُ المُقِـرُّ بِذُلِّـهِ يُ ـراوِحُ غِلْمَـانَ القُـرَى وَيُغَـادِي

لعل الراجح أنَّه كان مُعلم صبيان بالطائف، وَرِثَ هذه المهنة عن أبيه (وكان والده من سادات ثقيف وأشرافهم، وإنَّما صار التعليم صناعة واشتغل به المستضعفون حينما استقرت قواعد الإسلام واشتغل أهل العصبية بأمور الملك والسلطان وتركوا التعليم) (ابن خلدون، 22– 23)

(واشتغل بالعلم والرواية –منذ صباه– فروى عن ابن عبَّاس وسمرة بن جندب وأسماءبنت أبي بكر وغيرهم) (الذّهبي، 1996م، 4/ 343)

كان ذا عقل وذكاء. أمَّا عقله فقيل فيه (كانت عقول النّاس تقرب بعضها البعض إلّا ما كان من عقل الحجَّاج وإياس بن مُعاوية، فإن عقولهما كانت ترجح عقول النَّاس) (ابن كثير، 1990م، 9/ 119)

وكان خطيباً بيّناً يحوك ألفاظه لمعانيه رزقه الله الإقناع. قال مالك بن دينار (ما رأيتُ أبين من الحجَّاج كان يرقى المنبر فيذكر إحسانه لأهل العراق وإساءتهم إليه حَتَّى أقول في نفسي إنِّي لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين) (النويهي، 2004م، 7/ 244)

(كان صغير الجسم، ضعيف البصر، وقد نسب بعض رجال حاشيته ضعف عينه إلى قراءته المستمرة في الأوراق) (ابن عبد ربه، 15/3) (كان في ساقيه ضعف وصغر، فإذا مشى اصطكت إحداهما بالأخرى) (المرجع نفسه، 3/ 19) وكان دقيق الصوت، يرجل شَعره ويخصب أطرافه) (المعارف، 173)

آراء العلماء فيه: قال الذّهبي:أهلكه الله في رمضان سنة خمسٍ وتسعين كَهْلاً، وكان ظلوماً جبّاراً، ناصبياً سفاكاً للدِّماءخبيثاً، من سوء سيرته حصاره لابن الزُّبير بالكعبة، ورميه إيّاها بالمنجنيق، وإلحاده لأهل الحرمين، وحروب ابن الأشعث له، وتأخيره للصلوات إلى أن استأصله اللهنَسُبُّهُ ولا نُحبُّهُ ، بل نبغضه في الله فإنَّ ذلك من أوثق عُرى الإيمان... {ويذكر من حسناته} كان ذا شجاعةٍ ودهاءٍ ومكرٍ وإقدامٍ، وفصاحةٍ وبلاغةٍ، وتعظيمٍ للقرآن.وله حسناتٌ مغمورةٌ في بحر ذنوبهوله توحيد في الجملة وأمرهُ إلى الله...) (الذّهبي ،548/1)

(كانت وفاته ليلة سبع وعشرين من رمضان سنة خمس وتسعين عن عمر يناهز خمساً وخمسين سنة) (ابن قتيبة، 174) (ودُفِن بمدينة واسط، وعُفى قبره) (ابن كثير،139/9)

روايته للشِّعر وتمثله به:

لقد تمثل بالشِّعر في مواقف مختلفة من حياته: منها تمثله بالشِّعر وهو على المنبر:

أَحبَّ الحجَّاج الشِّعر حُباً قطع به وقته متمثلاً، راوياً وناقداً. وهو من أكثر ولاة بني أُميَّة شغفاً به، وأوفرهم نقداً، وكان يتمثل بالشِّعر وهو على المنبر جامعاً بين الصناعتين، ومن أمثلة ذلك تمثله –وهو على المنبر– بأبيات حُرَيث بن حفص التميمي، قال: أنتم يا أهل الشام كما قال حُرَيث: (عبد القادر البغدادي، 1996م، 6/ 23– 34)

لم تَرَ قومي إنْ دُعُوا لملمّةٍ ... أجابوا، وإن أغضبْ على القومِ يغضبوا

هُمْ حَفِظوا غيبي كما كُنتُ حافظاً ... لقومي أخرى مثلها إن تغيَّبوا

بنو الحربِ لَمْ تَقْعد بهم أُمَّهاتُهُم ... وآباؤهم آباءُ صدقٍ فأنجبوا

وكان إذا خاطب أهل العراق، قرع الأسماع بألفاظ غلاظٍ، ورماهم بالفجور والفتن ونحوها، وتمثل لهم بأبيات تكشف حالهم معه. وذلك عندما صعد المنبر ورفع صوته بأبيات سويد بن أبي كاهل قائلاً: (ابن قتيبة، 1932م، 4/ 38)

رُبَّ من أنضجتُ غيظاً قَلبَهُ ... قد تَمنّى لي موتاً لَمْ يُطَعْ

ويرانِي كالشَّجا في حَلقِهِ ... عَبِراً مَخرُجُهُ مَا يُنتَزَعْ

مُزبِدٌ يَخطِرُ ما بالم يرني ... فإذا اَسمعتُهُ صَوْتِي انقمَعْ

قَدْ كَفانِي اللهُ ما فِي نَفْسِهِ ... وَمتى مايَكْفِ شَيئاً لَمْ يُضَعْ

ويحيِّينِي إذا لاقيتُهُ ... ولذا يَحلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعْ

لَمْ يَضُرِّني غيرُ أن يَحْسُدَني ... فهو يزقُو مِثلما ما يزقُو الضُّوَعْ

وفي موضع آخر يتمثل لهم– وهو على المنبر– ببيتي الهمداني: إذ يقول (الجاحظ، 1948م، 2/ 138)

وَكُنْـــتُ إِذَا قَـــوْمٌ غَزَونـــي غَـــزَوتُهم ... فَهَـــل أنـــت فـــي ذا يالْهـــدان ظـــالِمُ

مَتـــى يَجْمَـــعُ القَلـــبَ الـــذَكيَّ وصـــارِماً ... وَأُفقـــاً حَمِيَّمـــاً تَجْتَبِيـــكَ المظـــالِمُ

راوح الحجَّاج بين المعاني الخطابية والمعاني الشّعرية، وهذا أمر محمود يخدم المعنى ويوصله إلى سامعيه قال القرطاجني (إنّالتخيل هو قوام المعاني الشّعريّة والإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناع في الأقاويل الشّعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع في موضع بعد موضع، كما أنَّ التخاييل سائغ استعمالهافي الأقاويل الخطابية، في الموضع بعد الموضع؛ وإنّما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيراً فيما تتقوم به الأخرى، لأ ّنَّ الغرض من الصناعتين واحدٌ، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحلّ القبول لتتأثر لمقتضاه، فكانت الصناعتين متواخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض فيهما. فلذلك ساغ للشاعر أن يخطب لكن في الأقل من كلامه، وللخطيب أن يشعر لكن في الأقلّ من كلامه) (المنهاج، 361)

وهذا يعني أن الاسلوب الخطابي سائغ في الشعر ولكن في مواضع.

وتمثل لَما غَضِبَ عليه عبد الملك– بقول الشاعر: (الخزانة، 2/ 138)

فلـــو كفـــيَّ اليمـــينُ بغتـــك خوفـــاً ... لأفـــردتُ الـــيمنَ مِـــنْ الشـــمالِ

هذا البيت شبيه ببيت المثقب العبدي في نونيته: (المفضل الضبي، 288)

فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي ... خلافـــك مـــا وصـــلتُ بهـــا يميني

وكان يتمثّل إذا رأى ما يسوومن ذلك أنه كان إذا أبصر المهلّب بن أبي صفره يقول: أنتَ والله كما قال لقيط بن يعمر الإيادي: (ديوان لقيط بن يعمر، 1971م، 47 – 49)

قِـفّـــوا أَمـــامَ ـــرَكُم للهِ تَرْكُـــم ... رَحْـــبَ الـــذِّراعِ بـــأمرِ الحـــرْبِ مُضْـــطَلَعا

لاَ يَطْعَـــمُ النَّـــوْمَ إِلاَّ رَيِّـــثَ يَبْعَثُـــهُ ... هَـــمٌّ يَكـــادُ حَشَـــاهُ يَقْـــبِضُ الضَـــلَعا

لاَ مُتْرَفـــاً إِنْ رَخَـــاءُ العَـــيشِ ســـاعَدَهُ ... وَلَا إِذَا عَـــضَّ مَكْـــرُوهٌ بِـــهِ خَشَـــعَا

مَـــا زالَ يَحْطُـــبُ هَـــذا الـــدَّهرَ أَشـــطُرُهُ ... يكـــونُ مُتَّبِعـــاً طَـــوراًوَمُتَّبَعـــا

حَتَّـــى اسْـــتَوَتْ علـــى شَـــزْرٍ مَرِيرَتُـــه ... مُسْـــتَحْكِمِ الـــرَأيِ لا قحمـــاً ولا ضَـــرَعا

وظل للحجَّاج راويةً للشّعر حَتَّى أيامه الأخيرة، ولَمَّا حضرته الوفاة أنشد متمثلاً بقول الشاعر: (ابن كثير، 9/ 324)

إنَّ المَنـــــايا تَبتَدِرْ عَبيـــــدُهُم ... فـــــي رِقِّهِـــم عتقـــوهم عِتْـــقَ أَبـــرارِ
وَأَنـــتَ يـــا خَـــالِدُ في أَولـــى بِـــذَا كَرَمـــاً ... قَـــدْ شِـــبْتُ فـــي الـــرِّقِ فَـــاعْتِقْنِي مِـــنْ النَّـــارِ

وأنشد أيضاً: (المرجع نفسه، 9/ 411)

يَـــا رَبِّ قَـــدْ خَلَـــفَ الأَعْـــدَاءُ وَاجْتَهَـــدُوا ... بِمَـــانِهِم أَنَّنِـــي مِـــنْ سَـــاكِنِي النَّـــارِ
أَيَحلِفُـــونَ عَلَـــى عَمْيَـــاءَ وَيْحَهُـــمُ!! ... مَـــا ظَـــنُّهُم بِعَظِـــيمِ العَفْـــوِ غَفَّـــارِ

إعجابه ونقده لأغراض الشّعر المختلفة:

كان الحجَّاج بليغاً فصيحاً وناقداً لا يشق له غبار، وهو أحد العلماء الَّذين تجافى عنهم اللحن، والعِي، والحصر، قال الأصمعي: (أربعة لم يلحنوا في جدٍّ ولا هزلٍ: الشّعبيُّ، وعبد الملك بن مروان، والحجَّاج بن يوسف، وابن القِرِّيَّة، والحجَّاج أفصحُهم) (الزجاجي، 1982م، 20)

وهو أوَّل من استخدم كلمتي (مطبوع ومصنوع) في العصر الأُموي وهي مصطلحات نقدية، وذلك لَمَّا سمع كلاماً بليغاً من أحد قادة جيشه فقال له: (أقسمتُ عليك هل روأت- أي ترويت وتفكر- في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله عليه أحد، فقال الحجَّاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع) (ابن الأثير، 2/ 338- 340)

يرفع هذا الخبر من رتبته النَّقدية ويجعله سابقاً لفتق أكمام مصطلحات النَّقد، مع ما سبق من روايته وتذوقه للشّعر جامعاً بين الرواية والنَّقد، فقد خُطت مجالسة الأدبية بتعليقات نقدية وضعها الباحث وفقاً لأغراض الشّعر العربي ومنها المدح.

ولجرير مدح عذب للحجَّاج في قصيدة طويلة نأخذ منها قوله:

سَـــدَدْتُ مِـــنَ الْمَواصَـــلَةِ العِتَابَـــا ... وَأَمسَـــى الشَّـــيبُ قَـــدْ وَرِثَ الشَّـــبابَا
دَعَـــا الحَجَّـــاجُ مِثْـــلَ دُعـــاءِ نُـــوحٍ ... فَأَســـمَعَ المَعـــارِجِ فاسْـــتَجابَا
صَـــبَرْتُ الـــنَّفْسَ يَـــا بـــنَ أَبـــي عَقِيـــلٍ ... مُحافَظَـــةً فَكَيْـــفَ يَـــرَى الثَّوابَـــا
وَلَـــوْ لَـــمْ يَـــرْضَ رَبُّـــكَ لَـــمْ يُـــزَلْ ... مَـــعَ النَّصْـــرِ المَلائِكَـــةُ الغِضَـــابَا
إِذَا سَـــعَوَ الخَلِيفَـــةُ ذَ ـــارَ حَـــرْبٍ ... رَأَى الحَجَّـــأَثْقَبَـــاجَ شَـــهَابَا
عَفَارِيـــتُ العِـــرَاقِ شَـــفَيْتَ مِـــنْهُم ... فَأَمْسَـــوْا خَاضِـــعِينَ لَـــكَ الرِّقَابَـــا
وَقَـــالُوا: مَـــنْ يُجامِعُنَـــا أَمِيـــرٌ ... أَقَـــامَ الحَـــدَّ وَلَّابَـــعَ الكِتَابَـــا

وأعطاه الحجَّاج جاريةً وهي أم ولده بلال وحزرة وحكيم وكانت تُسمى باسم هذا الأخير (أم حكيم) (ديوان جرير، 1986م، 16- 18)

أُعْجِبَ الحجَّاج بالصبغة الدِّينية الَّتي وردت في القصيدة، ولذلك وهبه الجارية.

لقدأفرغ جرير في مدائحه للحجَّاج المعاني الدِّينية والَّتي يُمتدَّحُ بها من إقامة العدل، ووأد الفتنة، ومنع الرشا، وحماية الـ حجيج، الشدّة على المنافقين، والغيرة على الحُرم، قائلاً: (المصدر نفسه، 90- 91)

مَنْ سَطَا عَلَى الذَّفاقِ عَلَيْهِم ... أُمَ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الحَجَّاجِ

أُمَ مَنْ يُغَارُ عَلَى النِّساءِ حَفِيظَةً ... إذ لا يَثِقُ بِغَيْرَةِ الأَزْوَاجِ

إنَّ ابْنَ يُوسُفَ قَدْ عَلِمْتَ وَتَيَقَّنُوا ... مَاضِي البَصِيرَةِ وَاضِحُ المِنْهَاجِ

قَاضٍ عَلَى الغَمَرَاتِ يُمْضِيهِ مُمْ ... وَاللَّيْلُ مُخْتَلِفُ الطَّرَائِقِ دَاجِي

مَنَعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمُ سُلِّمْتُمُ ... وَخَضَابُ لِحْيَتِهِ دَمُ الأَوْدَاجِ

فَاسْتَوْثِقُوا وَتَبَيَّنُوا سُلِّمْتُمُ ... سُلِّمْتَ كُلَّ ضَجَاجِ

يَا رُبَّ نَاكِثِ بَيْعَةٍ تَرَكْتَهُ ... غَبْرَاءَ ذَاتَ تَوَاخِنٍ وَأُجَاجِ

وَإِذَا رَأَيْتَ مُنَافِقِينَ تَخَيَّرُوا ... وَلِفَضْلِ سَيْبِكَ يَا بْنَ يُوسُفَ رَاجِي

دَاوَيْتَهُمْ وَشَفَيْتَهُمْ مِنْ فِتْنَةٍ ... وَلَقَدْ مَنَعْتَ حَقَائِبَ الحُجَّاجِ

إنِّي لَأُمْرِتَقِبُ لَمَا خَوَّفْتَنِي ... وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقِ

جمع الشاعر في البيت قبل الأخير بين الخوف من العقاب، والتزلف والاستجداء بالعطاء تصريحاً لا تلميحاً، فهو لا يصدرعن عاطفة صادقة لا تروم غير المدح، ولقد نال الشاعر بُغيته فخلع عليه الحجَّاج عطيّةً.

تقويمه لمعاني المدح: كان الحجَّ يُرشد الشُّعراء إلى المعاني الَّتي تَصْلُحُ في المدح، وله خبر مع الفرزدق وجرير وخبر مع ليلى الأخيلية.

أَمَّا خبره مع الفرزدق وجرير في تقويم معاني المدح، فيروى أَنَّه قال لهما: (-وبين يديه جارية – أيكما مدحني ببيت فضل فيه صاحبه فهذه الجارية له. فقال الفرزدق:

مَنْ يَأْمَنُ الحَجَّاجَ والطيرُ تَتَّقِي ... بِهِ تَتَقِيهِ إلَّا ضَعِيفٌ غَزَائُمُهْ

وقال جرير:

مـــنْ يَـــأْمَنُ الحَجَّـــاجَ أَمـــا عِقَابُـــه ... فُمـــرٌّ وأَمَّـــا عَقْـــدُهُ فَوَثِيـــقُ
يســـرّ لـــك البغضـــاء كـــل منـــافق ... كمـــا كـــل ذي ديـــن عليـــك شـــفوقُ

فقال الحجَّاج: (والطير تتقى عقوبته) كلام لا خير فيه، لأَنَّ الطير تتقى كلّ شيءٍ الثوب والصبيَّ وغير ذلك خذها يا جرير) (المرزباني، 1995م، 224)

ولو قال: (والأُسْدُ تتقى عقوبته) كان أظهر لقوة وسطوة الممدوح.والطَّير تتقى كلّ شيء كما قال الحجَّاجفهي تنفر من الغُلام والجوارح من الطَّير والشراك والصائد. وأحسن زُهير بن أبي سلمى (ديوان زهير بن أبي سلمى، 2005م، 42– 43) حيث جمع كل هذه الأشياء في قصيدة طويلة نقتبس بعضاً منها:

أذَهـــا مِـــنْ قَطَـــا الأجْبـــابِ حَلأهـــا ... وِرْدٌ وأفرَدَ عنهَا أُخْتَها الشَّرَكُ
أَهـــوى لَهـــا أَسْـــفَعُ الخـــدَيْنِ مُطَّـــرِقٌ ... رِيشَ القوادِمِ لَمْ يُنْصَبْ لَهُ الشَّبَكُ
شـــئَ أَســـوعُ مِنْهـــا وَهـــىَ طيّبَـــةٌ ... نَفْساً بِما سَوْفَ يُنْجِيهَا وَتَتَّرِكُ
دُونَ الســـماءِ وفـــوقَ الأرضِ قَـــدْرُهُما ... عِنْدَ الثُّنابَى، فَلا فَوْتٌ ولا تَرَكُ
عِنْـــدَ الثُّنابَى لَهَـــا صَـــوْتٌ وأَزْمَلَـــةٌ ... يَكادُ يَخْطِفُها طَوْراً وَتَهْتِكُ
تَحَّـــى إذا مَـــا هـــوتْ كَـــفُّ الوَليـــدِ لَهَـــا ... طَارَتْ وَفِي كَفِّهِ مِن رِيشِهَا بِتَكُ
ثُـــمَّ اسْـــتَمَرَّتْ إلـــى الـــوادي فَألجَاهَـــا ... مِنْهُ وَقَدْ طَمِعَ الأَظْفَارُ والحَنَكُ
حَتَّـــى استَغاثَتْ بِمَـــاءٍ لا رِشَـــاءَ لَـــهُ ... مِـــنَ الأَبَـــاطِحِ فِـــي حافاتِـــهِ البُـــرَكُ

إنَّ بيت جرير يَفضلُ بيت الفرزدق في حُسن التقسيم حيث جعل عقابه مرّ، وعهده وثيق.

وخبره الثاني مع ليلى الأخيلية إذ دخلت عليه مادحةً، بعد سنة أصابتها، مرسلة لسانها بمعاني الإطراء بأشعار كثيرة، يأخذ الباحث منها نموذجين، نموذج وقع فيه الإصلاح لكلمة توحي بمعنى لا يصلح في المدح، بكلمةٍ موحيةٍ بالمدح قائلةً:

أَحجَّـــــاجُ إِللهَ أَعْطَـــــاكَ غَايَـــــةً ... يُقَصِّرُ عَنْهَا مَنْ أَرَادَ مداهَا
أَحَجَّـــاجُ لاَ يُفْلِـــلُ سِـــلاَحُكَ إِنَّمَـــا الـــ ... ـمَنايا بِكَفِّ اللهِ حَيْثُ يَرَاهَا
إِذَا هَـــبَطَ الحَجَّـــاجُ أَرْضـــاً مَرِيضَـــةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَـفَاهَا مِـنَ الـدَّاءِ الْعُضَـالِ الَّـذِي بِهَـا ... غُلاَمٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
سَـــقَاهَا دِمَـــاءَ المـــارِقِينَ وَعَلَّهَـــا ... إِذَا جَمَحَتْ يَوْماً وَخِيفَ أَذَاهَا
إِذَا سَـــمِعَ الحَجَّـــاجُ رِزَّ كَتِيبَـــةٍ ... أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قَوَاهَا
أَعَـــدَّ لَهَـــا مَصْـــقُولَةً فَارِسِـــيَّةً ... بِأَيْدِي رِجَالٍ يَحْسُنُ صُرَاهَا
مَـــا وَلَـــدَ الأَبْكَـــارُ وَالعَـــوْنُ مِثْلَـــهُ ... بِنَجْـــدٍ وَلاَ أَرْضٍ يَجِـــفُّ ثَرَاهَا

فقال الحجَّاج: (قاتلها الله! والله ما أصاب صفتي شاعر مذ دخلت العراق غيرها، ثُمَّ التفت إلى عنبسة بن سعيد، فقال: والله إنّي لأعد للأمر عسى ألا يكون أبداً، ثُمَّ التفت إليها فقال: حسبك، فقالت: إنِّي قد قلت أكثر من هذا، قال حسبك ويحك! ثُمَّ قال يا غُلام اقطع لسانها {يعني بالصلة}) (ابن قتيبة ، 1/85- 86) وفي رواية قال لها: (لا تقولي غلام بل قولي همام) (ديوان ليلى الأخيلية، 2003م، 51)

أقر الحجَّاج إحسانها في المدح وأرضاها بالمال، ورّم ما وقع منها من فساد في كلمة(غلام)الَّتي توحي بالضعف، والطيش، والتخبط، واعتاض عنها كلمة (هُمام)الَّتي تباين المعنى وتحمل الوزن، وهي أوفق مع أخواتها في النهوض بالمعنى الحماسي الَّذي تمخض للشاعرة. أضف إلى ذلك أنَّها كلمة ذائعة في معجم الشُّعراء إذا راموا المدح والفخر، قال عامر ابن الطفل فاخراً بنفسه: (ديوان عامر بن الطفيل، 1979م، 119)

قَـــدْ تَعْلَـــمُ الحَـــرْبُ أَنِّـــي ابْنُهَـــا ... نِّـــي الهُمَـــامُ بِهَـــا المُطْعَـــمُ

قال مروان بن أبي حفص في مدح معن بن زائدة (شعر مروان بن أبي حفص، 27)

هُمَـــامٌ إِمَـــامٌ لَهُ قُـــدْرَةٌ ... ـــذِلُّ الرِّقَـــابُ لآيَاتِهَـــا

فَـــلاَ مَجْـــدَ فِـــي الأَرْضِ لَـــمْ يَبْنِـــهِ ... وَلاَ غَايَـــةً فِيـــهِ لَـــمْ يَأْتِهَـــا

وكان يروي أخبار الهجاء ويستخلص الفوائد والعبر منها:

قال حماد الراوية: (سأل أعشى قيس شجرة بن سليمان العبسى حاجة فرده، فقال يهجوه:

لقـــدَ كنـــت خياطـــاً فأصـــبحت فارســـاً ... تُعـــدُ إذا عُـــدَّ الفـــوارسُ مـــن مُضـــر

فَـــإن كُنـــتَ قَـــدْ أنكـــرتَ هـــذا فقـــل كـــذا ... وبـين لـــي الجُـــرحَ الَّـــذي كَـــانَ قَـــدْ نَثَـــر

وَاصَـــبعك الوســـطى عليـــه شـــهيدة ... وَمـــا ذَاكَ إلاَ وَخـــذَهَا الثَـــوبَ بـــالإبَر

وكان شجرة خياطاً قبل أن يلي للحجَّاج بعض أعمال الدَّولة، فَلَمَّا قَدِم على الحجَّاج قال له: يا شجرة، أرني اصبعك أنظر إليها.

قال:– أصلح الله الأمير– وما تصنع بها؟ قال: أنظر إلى صِفة الأعشى، فخجل شجرة، فقال الحجَّاج: هُو المُعْطِي أن يعطي الأعشى من عطاء شجرة، كذا وكذا، ثُمَّ قال يا شجرة، إذا أتاك امرؤ ذو حسب ولسانٍ فاشتري عرضك منه) (أبو الفرج الأصفهاني، 6/ 58)

هذا توجيه سياسي، بأن يتقي العامل في الدَّولة عِرضه بالمال، لأنَّ من لا يتقي الذم يُذم، ولكي لا تضيع هيبة الدَّولة فيلغ العامة في لحوم رجال الدَّولة، أضف إلى ذلك إنزال النَّاس منازلهم وإكرام الشُّعراء بالصِّلة والعطاء.

الفخر:

كان للفخر موضع في مجلس الحجَّاج، رضي عن بعضها وأنكر بعضها، وفقاً لِمَا تمليه ظروف الساعة والمقام، والشاهد على رضاه الرواية الَّتي مفادها (أنَّ الشُّعراء اجتمعوا في مجلسه وفيهم بن عبدل فقالوا للحجَّاج: إنَّ شِعر ابن عبدل كله هجاء وشِعر سخيف، فقال له: قد سمعتَ قولهم فاسمع مِنِّي؛ قال: هات، فأنشده قوله:

وإنِّـــي لأَسْـــتغنِي فمـــا أُبطَـــرُ الغنـــى ... وأعـــرض ميســـوري لمـــن يبتغـــي قرضـــي

وأُعْســـر أحيانـــاً فتشـــتدُّ عُسْـــرتي ... فـــأُدرِكُ ميْســـورَ الغنـــى ومعـــي عِرْضِـــي

حَتَّى انتهى إلى قوله:

ولســـتُ بـــذي وجهـــين فـــيمن عَرفتَـــه ... لَهُ البُخْـــلُ فَـــاعلم مـــن ســـمائي ولا أرضـــي

فقال الحجَّاج أحسنتَ وفضله في الجائزة عليهم بألفي دِرهم) (وليد محمود خالصي، 2000م، 673)

لخص الشاعر صِفاته الخُلقية في هذه الأبيات وهي صِفات حسنة وقعت في نفس الحجَّاج موقعاً حسناً فأعطا ه الجائزة، لأنَّ الشاعر مُجرِّب لتقلبات الحياة من غنى وفقر، وحفظ للعرض، ونبذه للتلون والنفاق والبخل، هذه النُعوت تغنَّى بها الشُّعراء ومُدِح بها الفضلاء فهي موضع فخر لا موضع هجاء، وتعمد الشاعر إنشادها لنفي ما تُوهِم عنه من وَلِهِ بالهجاء الَّذي أفسد شِعره على حدّ زعمهم

والشاهد على سخطه خبره مع يزيد بن الحكم الثقفي الذي وفد عليه من الطائف إلى العراق، وكان رجلاً شريفاً، فولاه الحجَّاج فارس، فلَمَّا جاء لأخذ العهد قال له الحجَّاج: يا يزيدُ أنشدنا من شعرك- يريد أن ينشده مديحاً له- فأنشده:

مَـــن يـــك سَـــائلاً عَنِّـــي فـــإنِّي ... ـَـا ابـــنُ الصِّـــيدِ مِـــنْ ســـلفي ثَقِيـــفِ

وَفِـــي وَســـط العـــرينِ مَحْـــلُّ بَيتِـــي ... مَحَـــلُّ الليـــثِ مِـــنْ وســـطِ العَرِيـــفِ

وفـــي كَعْـــبٍ، مِـــن كـــالحيِّ كَعْـــبٍ؟ ... حَلَلـــتُ ثُؤابـــةَ الجَبَـــلِ المُنيـــفِ

حَويـــتُ فَخَارَهـــا غَـــوْراً ونَجـــداً ... وَذَلِـــكَ مُنْتَهـــى شَـــرفُ الشـــريفِ

نمـــاني كـــلُّ أصَـــيدَ لا ضـــعيفٍ ... بحمـــلِ المُعْضِـــلات ولا عَنِيـــفِ

فوجم الحجَّاجُ وأطرق ساعة، ثُمَّ رفع رأسه فقال: الحمد لله أحمده وأشكره إذ لم يأتِ علينا زمانٌ إلَّا وفينا أشعر العرب. ثُمَّ قال أنشدنا، فأنشأ يقول:

أبِـــى الَّـــذي فـــتَحَ الـــبلادَ بسَـــيفِه ... فأَكَلهـــا لبنـــي الزّمـــانِ الغـــابرِ

أبِـــى الَّـــذي سَـــلبَ ابـــن كســـرى رايـــةً ... فـــي المُلْـــكِ تخفـــقُ كالعُقـــابِ الكاسِـــرِ

وإذا فَخَـــرتُ فخـــرتُ غيـــرَ مُكـــذَّبٍ ... فخـــراً أدقُّ بِـــهِ فَخَـــارَ الفـــاخرِ

فقام الحجَّاجُ مُغضباً، ودخل القصر، وانصرف يزيد والعهد في يده، فقال الحجَّاج لخادمه: اتْبعه وقل له: اردُدْ علينا عهدنا فإذا أخذْتَه فقل له: هل ورثك أبوك مثل هذا العهد؟ فقال الخادم وقد أبلغه الرسالة، فردَّ عليه العهد فقال: للحجَّاج أورثني أبي مجده وفعاله، وأورثكَ أبوكَ أعنزاً ترعاها!) (الزجاجي، 220) وفي الأغاني أنَّه قال: (أبو الفرج الأصفهاني، 11/ 96)

ورثـــتُ جـــدي مجـــده وفعالـــه ... وورثـــتَ جـــدكَ أعنـــزاً بالطـــائفِ

لقد أخذت الأمير الدهشة لَمَّا سمع هذا الفخر بالآباء والمآثر القديمة الموروثة على الوالي نفسه، فهذا خطأ في اختياره للغرض الشِّعري، لأنَّ المقام يحجز عن الفخر ويفسح لمدح الحجَّاج، لا إخمال ذِكره كما وقع منه، وقد قِيل قديماً: اختيار الرجل قِطعة من عقله وشِعره قِطعة من علمه.

ولهذا صرف الحجَّاج عنه ولاية فارس؛ لأنَّ شِعره كشف عن شخصيته الَّتي لا تصلح لولاية العهد بهذا التطاول على الولاة، فكيف تمتثل لأمرهم فيما بعد، وهي ترى أنَّها أعظم منهم وهذا ما صرح به في هجائه له؛ إذ رماه بالرعي للغنم ووصف جدوده بالمجد الموروث.

لقد نظر الشاعر في بيته الأوَّل والثاني إلى أبيات سُحيم بن وثيل الفخرية الَّتي يقول فيها: (الأصمعيات، 18- 20)

وامكاذَ ذَ ـــــــا مِـــــــنْ حِمْيَ ـــــــرِيٍّ مَكَـــانُ اللَّيْـ ـــثِ مِـــنْ وَسَـــطِ العَـــرِينِ

كـــــريُم الخـــالِ مـــن سَـــلَفَى ريـــاحٍ كَصَـــــلِ السَّـــيْفِ وَضَّـــاحُ الجَبِـــينِ

الغزل:

كان في مجلسه شيءٌ من الأشعار الغزلية، الَّتي تملّح بها وقطع بها سآمة الملل إذا طاف به، مُشْفِعاً ما يسمع بآراء نقدية مقومة لهذا الغرض من وصف حسن، وحُكمٍ بالصِّدقِ والكذب، ونعت لحال النِّساء مع الكهول.

ومن حسن الوصف خبر الحجَّاج مع جرير.

قال الحجَّاج لجرير: (وكان في المجلس جارية للحجَّاج. صفها، فسألها جرير عن اسمها، فقالت: أُمَامَةَ، فقال جرير:

وَدِّع أُمامـــــةَ حِـــــبَّ حـــــانَ رحيـــــلُ نَّ الـــــوَداعَ لِمَـــــنْ يُحـــــبِ قليـــــلُ

مِثـــــلَ الكَثيـــــبِ تَمايلـــــتْ أَعْطَافُـــــهُ وَالـــــرِّيحُ تَجْـــــرُ مَتْنَـــــهُ وتُميـــــلُ

هـــــذي القُلُـــوبُ صَـــوَادِياً تَيَّمْنَهَـــــا وَأرى الشِّـــــفَاءَ وَمَـــــا إِلَيْـــــهِ سَـــــبِيلُ

فقال الحجَّاج: قد جعل الله لك السبيل إليها، خذها هي لك.

فضرب بيده إلى يدها فتمنّعت عليه؛ فقال:

إن كـــــانَ حـــــبكم الـــــدلالَ فإنّـــــه حَســـــنٌ دلالُـــــكِ يـــــا أَمـــــامَ جميـــــلُ

فاستضحك الحجَّاج وأمر بتجهيزها معه إلى اليمامة) (عبد القادر البغدادي، 5/ 165)

تدخل هذه الأبيات في الغزل اللاهي أو المادي، إذ وصف الشاعر الجمال الخارجي للأنثى فهي كالرمل الكثيف جسماً إذا لعبت بها الريح، وكانت العرب تُحِبُ المرأة الممتلئة قال الأعشى: (ديوان الأعشى الكبير 357)

وَهْـــيَ إن تَـقْعُـدْ ذَ قَـــاً مِـــنْ عَـــالِجٍ إذَا قَـامَـــــتْ ذَيَاقـــــاً كَالشَّـــــطَنْ

ووصفها بما توصف به الحُرّة من الدلال قال امرؤ القيس في معلقته: (ديوان امرؤ القيس، 12)

ويومـــاً عَلـــى ظَهْـــرِ الكثيـــبِ تَعَـــذَّرتْ علـــيّ وآلـت حَلْفَـــةً لـــم تَحلَّـــلِ

أفـــاطَمَ مَهْلاً بَعْـــضَ هـــذا التَـــدلُّلِ وإنْ كنـــتِ قـــد أزمعـــتِ صَـــرمي فـــأجملي

الصِّدق والكذب:

وكان يحكم بمقياس الصِّدق والكذب على الشُّعراء فيجميع الأغراض، وَلَمَّا سَمِعَ الشاعر النُّميري ينشد واصفاً ومتغزلاً بزينب أخت الحجَّاج، وقيل ليست بأخته، أبياتاً حكم عليه بالصِّدق إذا وافق الواقع والكذب إذا خالف ذاك، وهذا مقياس نقدي تعامل به الحجَّاج.

أنشده النُّميري:

سَـــوعَ مِسْـــكاً بَطْـــنُ نَعمـــانَ إذَ مَشـــتْ بِـــهِ زَينـــبٌ فِـــي نِسْـــوةٍ خَفِـــراتِ

فقال الحجَّاج كذبت، والله ما كانت تخرج متعطِّرةً من بيتها، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ إلى قوله:

ولَمَّـــا رَأتْ ركـــبَ النُّميـــري رَاعهـــا وكُـــنْ مِـــن أَنْ يَلْقينـــهُ حَـــذِراتِ

فقال الحجَّاج: حُق لها أن ترتاع؛ لأنَّها من نسوة خفرات صالحات، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ قوله:

مَـــرَرنَ بِفـــخٍ ثُـــمَّ رُحْـــن عَشِـــيّةً يُلبـــينَ للـــرّحمنِ مُعْتمِـــراتِ

فقال الحجَّاج: صدقتَ، لقد كانت حجّاجة صوّامة، ثُمَّ أنشد حَتَّى بلغ قوله:

خُمـــرن لُطـــراف البنـــانِ مِـــنْ التُقـــى يَخـــرجن جُـــنحَ الليـــلِ مُعْتَجِـــراتِ

فقال الحجَّاج: صدقتَ.هكذا كانت تفعل، وهكذا المرأة الحُرَّةُ المسّلمة) (أبو الفرج الأصفهاني، 6/ 194)

وممَّا له صلة بهذا الضرب الغزلي خبره مع أنس بن زنيم حيث قال له: (أنشدني أفضل ما قالته كنانة. فأنشده قصيدة أبي الطفيل الَّتي فيها:

ـــدْعُونَ نِـي شَـــيْناً وَقَـــدْ عِشْـــتُ بُرهـــةً وَهُـــنَّ عَـنِ الأَزْوَاجِ نَحْـــوِي نَـــوَازِعُ

فقال الحجَّاج قاتله الله منافقاً ما أشعره!) (المرجع نفسه، 15/ 148)

فالشاعر يصف شبابه المُنصرم، وأسره للنِّساء حينئذ، وتركُهنّ أزواجَهنّ وميلهنّ إليه، الأمر الّذي جعل الحجَّاج يُعْجَبُ بهذه المعاني والخلال ويتعجب من شعره، وقد مُدِحَ الحجَّاج بصفةٍ تُشابِهُ الصِّفةَ الأخيرة وهي: وُثُوقُ النِّساء بغيرته واتهام غيرة بُعولهُن، قال جرير:

أُمَ مَنْ يَغارُ على النِّساءِ حَفِيظَةً ... ألا يَثِقْنَ بِغَيرةِ الأَزواجِ

فأمر له بألفرهم، وكساهُ حُلَّةً صفراء، وأنزله في دار الضيافة) (عبد القادر البغدادي، 5/ 164)

الرثاء:

لَمَّا مات محمد بن الحجَّاج ومحمد أخاه، قال الحجَّاج:من يقول شعراً يُسليني به؟ فقال الفرزدق:

الرَّزِيَّةَ لا رزِيَّةَ مِثْلُها ... فُقْدانُ مِثْلِ مُحَمَّدٍ ومُحَمَّدِ

مَلِكانِ قَدْ خَلَتِ المَنَابِرُ مِنْهُما ... أَخَذَ الحِمامُ عليهما بالمِرْصَدِ

فقال:لو زِدْتَني! فقال الفرزدق:

بَكَتِ البَواكِي على ابْنَيْ يُوسُفٍ جَزَعاً ... ومِثْلُ فَقْدِهِما لِلدِّينِ يُبْكِينِي

ما سَدَّ حَيٌّ ولا مَيِّتٌ سَدَّهُما ... إلَّا الخلائِفُ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّينِ

فقال له ما ضعت شيئاً، إنّما زِدْتَ في حُزْني، فقال:

لَئِنْ جَزِعَ الحَجَّاجُ مِنْ مُصِيبَةٍ ... يَكُونُ لِمَحْزُونٍ أَجَلَّ وأَوْجَعا

مِنَ الْمُصْطَفَى والمصطفى من خيارهم ... جَنَاحَيْهِ لَمَّا فارقاهُ فَوَدَّعا

جَناحَا عُقابٍ فارقاهُ كِلاهُما ... ولَوْ نُزِعا مِنْ غَيْرِهِ لَتَضَعْضَعا

فقال: الآن) (المبرد، 2/ 134) وفي رواية أخرى بزيادة بيتين أخيرين هما: (ابن عبد ربه، 3/ 16)

لَوْ أنَّ يَوْمَ جُعَيْتِهِ تَدَابَعا ... عَلَى شَامِخٍ صَعْبِ الذُرى لَتَصَدَّعا

سَمِيَّا رَسُولَ اللهِ سَمَّاهُما بِهِ ... إذا لَمْ يكُنْ عِنْدَ الحَوادِثِ أَخْضَعا

لم يُحْسِن الفرزدق في هذا الغرض الاحسان المنتظر؛ لأنَّ الرثاء يحتاج إلى رقةٍ وتفجعٍ وطبيعة لا يغلب عليها الفخر والتِيه، والحق إنَّ الفرزدق كان لا يُحْسِنُ قافية في الرثاء، وأخباره أظهر من أن تُذكَر

ثُمَّ إنَّ وأصر الوفاء بينه وبين المرثيين متقطّعة، ولم تك بين يدي الشاعر من الفضائل ما يَعب منها ويرتوى، ولذلك جاء الرثاء بارداً فاتراً لم يُضْرِم حُزْناً في القلب والكبد، ولم يرسل عيناً بالدَّمع والنحيب، ولم يذكر من مآثر المرثيين الشيء الكثير الَّذي تُبنى عليه قصيدة الرثاء ويحصل به السلوى، ولَمَّا رأى الحجَّاج ضآلة المعاني في بيته قال: لو زدتني (يعني في المعاني) وأتى الشاعر في الكرة الثانية بزيادة يسيرة تفضل الأولى ؛بحيث جعلهم في منزلة بعد منزلة الأنبياء، وكان قبل خصهم بالخطابة على المنابر، تقآل الحجَّاج المعنيين السابقين لذلك قال ناقداً: ما صنعتَ شيئاً.الأمر الَّذي جعل الشاعر يلهث وراء معاني الرثاء الحقيقية، ويبذل من نفسه فوق ما اعتادت عليه، ويقتفي أثر الأمة في هذا الباب عله يجد ما غاب عنه، وخال أنَّه قد ظفر بوصف أثر المصاب على نفسه بحيث لو أصاب جبلاً لتصدع، هذا المعنى كثير الطرق عند شعراء الغزل والجامع بين الرثاء والغزل: إضرام القلب، وإرسال الدَّمع، وذوبان النَّفس، إذا طافت ذكرى الحبيب أو الفقيد بالعقل. قال كُثيِّر عَزَّة: (ديوان كُثيِّر عَزَّة، 1971م، 365)

ويلـعَـزَّ لـو أشْـكو الَّـذي قَـدْ أصـابنِي إلـى جَبَـلٍ صَـعْبِ الـذُّرى لنحـى ليـا

قال مُتَمِّم بن نويرة في رثاء أخيه مالك (المفضل الضبي، 269)

لَوأَنْ مَـا أَلْقَـى يُصـيبُ مُتَالِعـاً أَو الـرُّكْنَ مِـن سَـلْمى إذنْ لَتَضَعْضَـعَا

كان الحجَّاج بن يوسف قلق الوضين إذا طُوى عنه خبرٌ له رِتقةٌ بالأدب، يلتمس من حاشيته ورعيته أن يُخبروه عمّا غاب عنه وأحاطوا به علماً، وشاهد ذلك الخبر المحكي: (كتب الحجَّاج إلى عبد الملك بن مروان، يُعظِّم أمَر قطريّ بن الفجاءة، فكتب، إليه عبد الملك: أوصيك بما أوصى به البكريّ زيداً، فقال الحجَّاج لحاجبه: نادي في النَّاس، مَنْ أخبر الأمير بما أوصى به البكريّ زيداً فله عشرة آلاف درهم، فقال رجل للحاجب أنا أخبره، فأدخله عليه، فقال له: ما قال البكريّ لزيد؟ قال قال: لابن عمّه زيد، والشِّعر لموسى بن جابر الحنفي:

قَـــولُ لِـزيـــدٍ لا تَـرتَـــدَّ فـــإنَّهم ـــرونالمنايـــا دُونَ قَتْلِـــكَ أو قَتْلِـــي

فـــإنْ وصَـــفوا حَربـــاً فضـــعها فـــإن أبـــوا فشـــبَّ وقـــودَ الحـــربِ بالحطـــبِ الجـــزلِ

فـــإنْ عَضَّـــت الحَـبُـرالضَّـــروسُ بِنَابِهَـــا فعُوضَـــةُ نـــارِ الحـــربِ مَثْلَـــكَ أو مِثلِـــي

فقال الحجَّاج: صدق أمير المؤمنين، عُوضة نار الحرب مثلي أو مثله) (خليل إبراهيم، 1991م، 131)

إنَّ السؤال عن سواتر الأخبار ومخابئها من عمائق الفطن، لاسيما إذا صدر من الأعلى إلى الأدنى فإنَّه أنفى للكبر عن النفس وأجمع لخصال العلم، ولولا سؤاله لستر عنّا خبر هذه الأبيات الحماسية الَّتي كشفت

مداخل النفوس من إحن واحقاد لا ترضى بشيء غير القتل واشعال نار الحرب. مستعيرة للحرب (الدَّار والعضّ والناب) مازجةً بين الثنائية في قوله (مثلك أو مثلي، قتلك أو قتلي)الَّتي أشار إليها عبد الملك منبهاً الحجَّاج، إذ هما المقصودان عند الأعداء. والحق إنَّ عبد الملك أضلع من الحجَّاج في هذا الباب.

التبرؤ والاستعطاف:

إنَّ الحجَّاج رحيم إذاافح أُذنَ هُ كَلِّم عَطُوف بكى لذاك ونسخ حكمة من عقاب إلى ثواب، يُروى أنَّ رجلاً يُقال له أسلم بن عبد البكر، قد اتهمه الحجَّاج في أمر من الأمور فَلَمَّا مَثَلَ بين يديه، قال: يا أيُّها الأمير، ما بلغك عَنِّي فباطل والله يقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات، 6) وأنا أعول أربعاً وعشرين امرأة، وهن بالباب، فأمر الحجَّاج بإحضارهن، فَلَمَّا حضرن جعلت هذه تقول أنا خالته، وهذه أنا عمته، وهذه أنا زوجته، وهذه أنا ابنته، ثُمَّ تقدمت جارية دون العاشرة فقالت أنا ابنته وأنشدت:

حجَّـــاج لَـمـتَشـــهـَد مقـــامَ بناتِـــه ... عملتـــه يـُتبنَـــــهُ الليـــــلَ أجْمعـــا

أحجَّـــاج كَـــمْ تقتـــل بـــه إن قتلتـــه ... ثمانيـــاً وعَشْـــراً واثنتـــين وأربعـــا

أحجَّـــاج مـــن هـــذا يَقـــومُ مَقامَـــهُ ... عَلينـــا فَمهـــلاً لا تَزِدنـــا تَضْعضُـــعا

أحجَّـــاج إمّـــا أن تَجـــودَ بنعمـــةٍ ... عَلْينـــا وإمّـــا أن تُقتلنَـــا معـــا

قال فبكى الحجَّاج وقال: (والله لا أعنتُ عليكن ولا زدتكن تضعضعا، وأطلق الأمير وتفقد الجارية في كل يوم) (منصور الحكم، 131– 132) لقد أثر هذا الشِّعر في أطواء نفسه، لمشتمل عليه من التودد والضعف وسوء المُنقلب، نادته نداء القريب وكررت النداء لتقرع العاطفة.

وكان وقافاً على كتاب الله إذا ذُكِرَ بما نسي فاء إلى أمر الله تعالى، قال الهيثم بن عدى: (جاء رجل إلى الحجَّاج فقال: إنَّ أخي خرج مع ابن الأشعث فَضُرِبَ على اسمي في الدِّيوان، ومُنِعتُ العطاء وقد هُدِمت داري، فقال الحجَّاج: أما سمعتَ قول الشاعر:

جَانيـــكَ مَـــنْ يـُجْنـــي عَلَيـــكَ وربمـــا ... تُعـــدِّي الصِّـــحاحَ مبـــارِكُ الجَـــرَبِ

ولَـــرُبَّ مَـــأخُوذٍ بـــذنبِ قَريبـــهِ ... ونجـــا الُمقـــارِفُ صَـــاحِبُ الـــذَّنْبِ؟

فقال الرجل: أيُّها الأمير، إنِّي سمعتُ الله يقول غير هذا، قال وما قال؟ قال الرجل: قال الله تعالى: قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (78) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ

إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ" (يوسف، 78- 79) قال الحجَّاج: يا غُلام، أعد اسمه في الدِّيوان، وابنِ داره، وأعطه عطاءه، وهو منادياً ينادي: صدق الله وكذب الشاعر) (ابن كثير، 9/ 307- 308)

تفرد خُلفاء وولاة بني أُميَّة- لا سيما في العراق بظاهرة هدم منازل الرعيّة إذا وقعوا فيما نُهوا عنه، ولقد مسَّ هذا الضرر جريراً والفرزدق لتهاجيهما بالمربد، قال جرير: (ديوان جرير، ص389)

فَمَا فِي كِتَابِ اللهِ تَهْدِيمُ دُورِنَا كَتَهْدِيمِ مَاخُورٍ خَبِيثٍ مَذَاخِلُهْ

قال الفرزدق: (ديوان الفرزدق، 505)

أَحَارِثُ دَارِيهَا رَزَتْنِي هَدَمْتَهَا وَكُنْتَ ابْنَ أُخْتٍ لَا تُخَافُ غَوَائِلُهْ

الخاتمة:

الحمد لله الَّذي أعانني على إكمال هذه الدِّراسة الَّتي جاءت تحت عنوان (الحس النَّقدي عند الحجَّاج بن يوسف في تذوقه للشِّعر العربي) وخرجت الدِّراسة بنتائج:

1- إنَّ الحجَّاج أوَّل من استخدم كلمتي مطبوع ومصنوع وهما مصطلحان نقديان.
2- اتخذ الصِّدق في قول الشِّعر مقياساً في تقديم الشاعر وتأخيره.
3- كان يتأثر بالشعر الرقيق اذا أصاب عاطفته، ويطلق الجاني ويغدق عليه الأموال.
4- كان وقافاً على كتاب الله يهجر ما آمن به من الشِّعر إذا تبين له خِلاف ذلك في آي القرءان الكريم.
5- للحجاج حس نقدي وتذوق للشِّعر بلغ درجة لا تضاهى.

التوصيات:

أوصي بمزيد من الدِّراسات حول الحجَّاج بن يوسف لا سيما في نقده للنثر العربي وتوجيهاته للكُتاب والخُطباء.

الهوامش:

1. هو سويد بن أبي كاهل اليشكري، واسمه عُطيف بن حارثة بن حِصل، شاعر مقدم مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، عدَّه ابن سلَّام في الطبقة السادسة، وقرنه بعنترة بن شداد، كانت هذه القصيدة تفضلها العرب في الجاهلية وسمتها (اليتيمة) لِما اشتملت عليه من الأمثال ينظر، خِزانة الأدب، 126/125/6
2. الشجا: الغصص.
3. مزيد: من أزيد أخرج الزبد، الخطر: من تحريك اليدين في المشى والاختيال بهما. انقمع: دخل بعضه في بعض، والمعنى إنه يتعاظم إذا لم يرني وإذا رآني تضآءل.
4. الضوع: نَكْهُ البوم. يزقو: يصبح.
5. هو عمر بن براقة الهمداني، شاعر جاهلي من عدائي العرب ذكره تأبط شراً في المفضليات إذ يقول: ليلة صاحوا وأغروا بي سراعهم*** بالعيكتين لدى معد ابن براقِ، الجاحظ (البيان والتبين) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1948م، 138/2

6. هو عائذ بن محصن بن ثعلبة، والمثقب لقبه لقوله (وثقبن الوصاوص للعيونِ) شاعر جاهلي فحل، كان في زمن عمرو بن هند، ينظر، المفضل الضبي (المفضليات) تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف المصرية، ط6، 149
7. هو لقيط بن يعمر أو معمر الإيادي، شاعر جاهلي ُمقل قِيل اعتنق المسيحية، وكان كاتباً عند ملوك الفرس، قتله ملك الفرس لأ ّنه أبلغ العرب أمر كسرى وغزوه لهم، ينظر ديِوانه ص،13،12،11
8. رواية الدِّيوان (ما انفك يجلب درّ الدهر)
9. رواية الدِّيوان (مستحكم السَّن) وقوله: على شزر مريرته: هذا مثل يضرب يقال: شزرت الحبل: إذا كررتُ فتله بعد استحكامه، والمرير: الحبل.
10. الأجباب: الآبار حلأها: طردها عن الماء. الورد:هم النَّاس الَّذين يردون الماء.
11. أهوى: انحدر. اسفع الخدين: أي صقر. مطّرق: أي ريشه غير منتشر في جميع جسمه.
12. تتّرك: أي لا تبذل جميع جهدها في الطير ثقتاً بسرعتها.
13. الأزملة: هي اختلاط الأصوات. تهتلك: تجدّ في طيرانها.
14. البتك: بعض ريشها، يعني أن الوليد أخذ بعض ريشها.
15. الحنك: أي منقارها.
16. يفلل: يثلم ويكسر.
17. سقاها: رواها بالدم.
18. الرزّ: الصوت. القرى: الاطعام، وهذا كناية عن عدّة الحرب.
19. المصقولة: أي السيوف المجلّوة. الصرىٰللبن الَّذي تغيّر طعمه.
20. الأبكار: الفتية. العون: الثيب. النجد: الأرض المرتفعة.
21. هو الحكم بن عْبدل بن جبلة، شاعر مقدم في طبقته، هجاء خبيث اللسان، من شعراء الدَّولة الأُموية، منشؤه بالكوفة، كان أعرج أحدب، له عصاه لا تفارقه، ينظر تجريد الأغاني، 299
22. العريف: وسط عرين الأسد وبيته.
23. الغور: المكان المنخفض. النجد: المكان المرتفع.
24. الأصيد: السيد في قومه.
25. النقا: الكثيب. العالج: موضع به رمل.ذِياقا: امرأة تامة الطول والحسن الشَّطن الحبل.
26. الخفر: شدة الحياء.
27. راعها: أفزعها وأخافها.
28. ُمعتجرات: ُمختمرات.
29. هو أنس بن زنيم بن عمرو الكنِي، شاعر من الصحابة، نشأ في الجاهلية، وَلَمَّا ظَفَ َر الإسلام هجا الذ ّبيَّ فأهدر دمه، فأسلم يوم الفتح ومدح رسول الله ρ بقصائد فعفا عنه، عاش إلى أيام عبيد الله بن أبيه، وكان عبيد الله يحرش بينه وبين بعض الشُّعراء، مات سنة 60هـ، ينظر الأعلام الزركلي، 24/3

30. هو عامر بن واثلة بن عبد الله الليثي الكناني، كنيته أبا الطفيل، وُلد عام أُحد بمكة سنة 3هـ وهو صحابي جليل، كان سَيِّداً من سادات قومه وأشرافهم، فاضلاً شاعراً حاضر الجواب، تُوفي بمكة سنة 100هـ وقيل 102 وقيل 110هـ ينظر، الأغاني، 147/15

31. متالع وسلمى: جبلان.

32. موسى بن جابر بن الأرقم الحنفي، شاعر مخضرم نصراني، ينظر، الأغاني، 10/ 107

المصادر والمراجع:

1- القرءان الكريم.

2- أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني) مؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م

3- ابن الأثير (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) تحقيق: بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط4

4- ابن خلدون (المُقدمة) المطبعة البهية.

5- ابن عبد ربه (العِقد الفريد) تحقيق: مفيد محمد ، دار الكُتب العلمية، بيروت، ط1، 1983

6- ابن عساكر (تاريخ مدينة دِمشق) تحقيق: محي الدِّين ابي سعيد، دار الفكر، بيروت، 1995م

7- ابن قتيبة (المعارف) حققه وقدم له: ثروت عكاشة، دار المعارف المصرية، ط4

8- ابن قتيبة (الشِّعر والشُّعراء) صححه وعلق حواشيه: مصطفى أفندي السقا، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط2، 1932م

9- ابن كثير (البداية والنهاية) مكتبة المعارف، بيروت، ط8، 1990م

10- بدر الدِّين محمود بن أحمد (عقد الحجاز في تاريخ أهل الزمان) دار الكُتب العلمية.

11- جرير بن عطية (الدِّيوان) دار بيروت للطباعة والنشر، 1986م

12- الجاحظ (البيان والتبين) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1948م

13- خليل إبراهيم (عبد الملك بن مروان النَّاقد الأديب) دار النضال، مصر، ط1، 1991م

14- الذَّهبي (تاريخ الإسلام) تحقيق: عمر عبد السلام تدمر، دار الكتاب العربي بيروت، ط1، 1990م

15- الذَّهبي (سِير أعلام النُبلاء) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، 1996م

16- زُهير بن أبي سُلمى (الدِّيوان) اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعارف بيروت، ط2، 2005م

17- الزجاجي: عبد الرحمن بن إسحاق (أمالي الزَّجاجي) شرح وتحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت لبنان، ط2، 1982م

18- عامر بن الطُفيل (الدِّيوان) دار صادر بيروت، 1979م

19- عبد القادر البغدادي (خِزانة الأدب ولب لباب لسان العرب) تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1996م

20- كُثيِّر عزَّة (الدِّيوان) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، 1971م

21-لقيط بن يَعمر الإيادي (الدِّيوان) تحقيق: عبد المجيد خان، دار الأمانة مؤسسة الرسالة، بيروت، 1971م
22- المَرزباني (المُوشح في مأخذ العُلماء على الشُّعراء) تحقيق: محمد حُسين شمس الدِّين، دار الكتب العلمية، ط1، 1995م
23- ليلى الأخيلية (الدِّيوان) وضاح الصَّمد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط2، 2003م
24- المفضل الضبي (المفضليات) تحقيق وشرح: عبد السلام هارون ,احمد محمد شاكر، دار المعارف المصرية، ط6
25- المبرد (كامل في اللُّغة والأدب) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدَّعوة والإرشاد، المملكة العربيَّة السعودية.
26- النويهي (نهاية الأرب في فنون العرب) تحقيق: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م
27- شِعر مروان بن أبي حفص، تحقيق: حُسين عطوان، دار المعارف القاهرة، ط3
28- منصور الحكم (الحجَّاج بن يوسف طاغية بني مروان) دار الكتاب العربي، دِمشق.
29- وليد محمود خالص (النَّقد الأدبي في كِتاب الأغاني) دار أسامة للنشر، ط1، 2000م
30- ياقوت الحموي (مُعجم البُلدان) دار صادر، 1993م